التلطف وحسن المعشر (3/3)

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 15 يونيو 2018

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

ولنعود إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم، الذي كان كذلك يشاركه زوجاته رضي اللّه عنهن المناسبات السعيدة أيضًا؛ فعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: كان الحبش يلعبون بحرابهم فسترني رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأنا أنظر فما زلت أنظر حتى كنت أنا أنصرف فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن تسمع اللهو. رواه البخاري.

ومرة أخرى كان يسألها صلى اللّه عليه وسلم إن كانت رضي اللّه عنها تريد النظر إلى مثل هذه الاحتفالات، فيدعوها لذلك، فعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: دَخَلَ الْحَبَشَةُ الْمَسْجِدَ يَلْعَبُونَ، فَقَالَ لِي: "يَا حُمَيْرَاءُ، أَتُحِبِّينَ أَنْ تَنْظُرِي إِلَيْهِمْ ؟"، فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَامَ بِالْبَابِ، وَجِئْتُهُ، فَوَضَعْتُ ذَقَنِي عَلَى عَاتِقِهِ، فَأَسْنَدْتُ وَجْهِي إِلَى خَدِّهِ، قَالَتْ: وَمِنْ قَوْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ: أَبَا الْقَاسِمِ طَيِّبًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "حَسْبُكِ"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لا تَعْجَلْ، فَقَامَ لِي، ثُمَّ قَالَ: "حَسْبُكِ"، فَقُلْتُ: لا تَعْجَلْ

يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَتْ: وَمَا لِي حُبُّ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ يَبْلُغَ النِّسَاءَ مَقَامُهُ لِي، وَمَكَانِي مِنْهُ. أخرجه البخاري ومسلم.

بل كان صلى اللّه عليه وسلم يتحمل من أجل إسعادهن رضي اللّه عنهن، فعن عائشة رضي اللّه عنها أن أبا بكر رضي اللّه عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تغنيان وتضربان ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مسجى بثوبه فانتهرهما أبو بكر فكشف رسول اللّه عنه وقال دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد.

ولم يكن ذلك في المناسبات والأعياد فحسب وإنما كان هذا ديدنه صلى اللّه عليه وسلم في الحياة اليومية، فيروى عن أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها أنها قالت: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَوْ خَيْبَرَ، وَفِي سَهْوَتِهَا سِتْرٌ، فَهَبَّتْ رِيحٌ، فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ لُعَبٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ ؟ قَالَتْ: بَنَاتِي، وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَسًا لَهَا جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسَطَهُنَّ ؟ قَالَتْ: فَرَسٌ، قَالَ: وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟ قَالَتْ: جَنَاحَانِ، فَقَالَ: فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ ؟ قَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلًا لَهَا أَجْنِحَةٌ ؟ قَالَتْ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ. رواه أبو داود.

يلاحظ أنها رضي اللّه عنها قالت "فضحك"، نعم ضحك، لم يغضب ولم ينهر، وإنما ضحك.

وقَالَتْ أم المؤمنين عَائِشَةُ رضي اللّه عنها – أيضًا – زَارَتْنَا سَوْدَةُ يَوْمًا، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا إِحْدَى رِجْلَيْهِ فِي حِجْرِي، وَالأُخْرَى فِي حِجْرِهَا، فَعَمِلْتُ لَهَا حَرِيرَةً، أَوْ قَالَ: خَزِيرَةً، فَقُلْتُ: كُلِي، فَأَبَتْ، فَقُلْتُ: لَتَأْكُلِي أَوْ لأَلَطِخَنَّ وَجْهَكِ، فَأَبَتْ، فَأَخَذْتُ مِنَ الْقَصْعَةِ شَيْئًا، فَلَطَّخْتُ بِهِ وَجْهَهَا، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رِجْلَهُ مِنْ حِجْرِهَا، تَسْتَقِيدُ مِنِّي، فَأَخَذَتْ مِنَ الْقَصْعَةِ شَيْئًا، فَلَطَّخَتْ بِهِ وَجْهِي، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضْحَكُ، فَإِذَا عُمَرُ، يَقُولُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُومَا، فَاغْسِلا وُجُوهَكُمَا، فَلا أَحْسِبُ عُمَرَ إِلا دَاخِلا. أخرجه النسائي.

ومرة أخرى قالت "ضحك"، فقط ضحك.

وذهب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى أبعد من ذلك فقد كان يغتسل مع زوجته رضي اللّه عنها، فعن أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها؛ كنت أغتسل أنا ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من إناء واحد بيني وبينه، فيبادرني، حتى أقول: دع لي، دع لي. قالت: وهما جنبان. متفق عليه.

وحتى عندما كان يريد أن يرتاح فقد كان صلى اللّه عليه وسلم يتكئ على حجر زوجته، فقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها؛ أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان يتكئ في حجري وأنا حائض ثم يقرأ القرآن. متفق عليه.

لم يدخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مدارس فن الاتيكيت والرومانسية الأوروبية للتعامل مع الزوجات، ولم يقرأ كتابًا في فنون الحب والمعاشرة والملاطفة الزوجية، ولم يشاهد الأفلام الهوليودية التي تحاول أن توهم العالم عن حسن معاشرة الرجل الغربي لزوجته الغربية، وإنما عاش في مكة المكرمة جل عمره، تلك البيئة الصحراوية التي لم تكن فيه المرأة مهانة فحسب وإنما لم يكن لها قيمة تذكر، لم يكن ذلك في حضارة مكة المكرمة فقط وإنما في كل تلك الحضارات التي كانت مزدهرة آنذاك، وبالتالي لم تكن للحياة الزوجية قيمة، فكان الرجل يتزوج من أجل العيال والأولاد وممارسة الحياة الفطرية، إلا أنه صلى اللّه عليه وسلم وتطبيقًا للشريعة الإسلامية قلب كل تلك الموازين، واهتم بالمرأة ونفسيتها ورغباتها وحاجاتها، وقدر ضعفها وغضبها وآلامها، ووضعها في مكانتها الرفيعة التي تضعها فيه حضارة من قبل أم بعد حتى اليوم.

واليوم يعلمنا صلى اللّه عليه وسلم ويعلم البشرية كلها فن الرومانسية والمعاشرة وفنون الحب والعلاقات الزوجية، هكذا بكل بساطة من غير تكلف أو مواربة أو خوف، لأن المرأة هي المجتمع، وهي والرجل صنوان، فلا يمكن أن يسير المجتمع بجناح واحدة وإنما تكتمل الحياة باكتمال الجناحين؛ الرجل والمرأة.